﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٧٤﴾ [الأعراف: 74]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمّا أمرَ صالحٌ قومَه بعبادةِ اللّهِ وحدَه، وجاءَهم بالحُجَّةِ على صدْقِ رسالتِه، ونهاهم أن يمُسّوا النّاقةَ بسوءٍ، ذكّرهم بنِعمِ اللّهِ عليهم؛ ترغيبًا في الامتثالِ، ومُشيرًا به إلى ترهيبِهم منَ الإفسادِ[1]، فوَقَعَتْ هذه الآيةُ منَ السّابقةِ موقعَ الإقناعِ باقتلاعِ ما يجولُ في نفوسِهم من عَقْرِ النّاقةِ، بما هو كائنٌ منَ النِّعمِ المُحيطةِ بهم، فكانَ التَّذكيرُ بالنِّعمِ بمثابةِ إقامةِ الحُجَّةِ على الامتثالِ للحُجَّةِ، وتركِ الامتثالِ للشَّهوةِ.

إقناعُ المخاطَبِ باقتلاعِ الإقدامِ على الشَّهواتِ سبيلُه التَّذكيرُ

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خُلَفَآءَ﴾: أصلُ (خلف): أن يَجيءَ شَيءٌ بعدَ شَيءٍ يقومُ مَقامَه، وخَلَفَ فلانٌ فلانًا، قامَ بالأمر عنه، إمّا معه وإمّا بعده، والخَلْفُ: ضدُّ القُدّام، والخِلافةُ النّيابةُ عنِ الغيرِ، إمّا لغيبةِ المَنوبِ عنه، وإمّا لموتِه، وإمّا لعجزِه، وإمّا لتشريفِ المستخلَفِ، وعلى هذا الوجهِ الأخيرِ استخلفَ اللّهُ أولياءَه في الأرضِ، والخليفةُ: الّذي يخلفُكَ، ويكونُ بعدَك، وكلُّ مَنْ تولّى شيئًا بعدَ آخرَ يُقالُ له: خليفةٌ، والخلائفُ: جمعُ خليفةٍ، وخلفاءُ جمعُ خليفٍ[2]، والخليفةُ، وهو الذي يخلفُ غيرَه في شيءٍ، أي: يتولّى عملَ ما كان يعملُه الآخرُ، فالمرادُ: جعلَكم خلفاءَ في تعميرِ الأرضِ[3].

2) ﴿وَبَوَّأَكُمۡ﴾: أصلُ معنى باءَ يدورُ على معنيين: أحَدُهُما

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/444.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خلف).
(3) ابن عاشور: التّحرير والتّنوير: 8/205.

الرُّجوعُ إِلَى الشَّيءِ مع تمكُّنٍ فيه، ومنه: الباءةُ والمباءةُ مَنزِلُ القَوم، حيثُ يَتبوّؤون من قِبَل وادٍ أو سَنَد جَبَلٍ؛ ليكونَ مَرجِعًا لهم، وبَوّأْتُه مَنزِلًا؛ بمعنى: أنزلتُه، ثمَّ استُعملَتِ الكلمةُ لمعنى الإقامةِ على الشَّيء، والمعنى الثّاني لـ(باء) يدلُّ على تَساوي الشَّيئَينِ وتكافؤِهما، فيُستعملُ البَواءُ في مراعاةِ التَّكافؤِ، فيُقالُ: فلانٌ بواءٌ لفلانٍ إذا ساواه، وقد يُجمَعُ الرّجوعُ والتّكافؤُ في مثلِ قولهم: تَبوَّأَ فُلانٌ مَنزِلًا: إذا نظَر إِلَى أسهَلِ ما يُرى وأشَدِّه استِواءً وأمكَنِه، بحيث يكون مُكافِئًا له؛ ليرجعَ إليه في مَبيتِهِ، ومعنى ﴿وَبَوَّأَكُمْ﴾ في الآيةِ: أنزَلكُم وأسكَنَكُم[1].

3) ﴿سُهُولِهَا﴾: أصلُ مادّة (سهل) تدلُّ على لينٍ وخلافِ حزونةٍ، والسَّهلُ: خلافُ الحزن[2]، والحزنُ: ما غلُظَ منَ الأرض[3]، فالسّهلُ هو المكانُ المنخفضُ المستوي منَ الأرض، الّذي لا وَعْرَ فيه، وضدُّه الجبلُ، وسُمّي سهلًا للين المشي فيه، بخلاف الجبلِ فهو صعبٌ وشديدٌ، ومعناه في الآية: السُّهولُ التي تُقابل الجبالَ، فهم يتَّخذون فيها قصورًا، لسهولةِ الوصولِ إليها على ساكنيها.

4) ﴿وَتَنْحِتُونَ﴾: أصلُ مادّةِ (نحت) يدلُّ على نجْرِ شيءٍ وتسويتِه بحديدةٍ[4]، ويدورُ المعنى المحوريُّ للنّحتِ على اقتطاعٍ من ظاهر الجرمِ الجافِّ الصّلبِ باتّجاه باطنِه بدقّةٍ نحو البَرْي، ويكونُ للشّجرِ والخشبِ ونحوِهما منَ الأجسامِ الصَّلبةِ، يُقال: نحتَ النَّجّارُ الخشبةَ: نَشَرها، وقَشَرها بدقّةٍ، ومعنى ﴿وَتَنْحِتُونَ﴾: تَبرون أو تقتطِعون[5] الحجرَ بآلةٍ على تقديرٍ مخصوصٍ[6].

5) ﴿قُصُورًا﴾: القِصَرُ خلافُ الطّولِ، وهما منَ الأسماءِ المتضايفةِ الّتي تُعتبَرُ بغيرِها، والقَصرُ الحبسُ، وهو مقصورٌ؛ أي: محبوسٌ، وامرأةٌ قاصرةُ الطَّرفِ: لا تمدُّه إلى غيرِ بعلِها، كأنَّها تَحبسُ طرفَها حبسًا، وقَصَرْتُ كذا: ضممتُ بعضَه إلى بعضٍ، ومنه سمّيَ القَصرُ، وجمعُه قُصورٌ، وهو البناءُ العالي الكبيرُ الّذي يكونُ من حجرٍ وأُحيطَ به، وكلُّ ناحيةٍ منه مقصورةٌ، سُمّيَ بذَلِكَ؛ لأنَّه تُقصَرُ فيهِ الحُرَمُ؛ أي: تُحبس، وقد يكونُ سببُ

(1) الأزهريّ: تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (بوأ)، والسّجستانّي، غريب القرآن، ص: 121.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سهل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حزن).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نحت).
(5) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نحت).
(6) ابن عاشور: التّحرير والتّنوير: 8/220.

تسميتِها قصورًا؛ لأنّها حُبِسَت عن نيلِ عُمومِ النّاس، وقصرِهم عن تحصيلِها[1]، والقصرُ هنا ما شُيِّد وعلا منَ المنازلِ[2].

6) ﴿ءَالَآءَ﴾: الآلاء: النِّعَمُ، واحدُها (إلى) كمعى، و(أُلى) كرحَى، و(ألي) كهجرٍ، و(إلِي) كفلسٍ[3]، وهي النِّعمةُ الّتي تتلوها غيرُها[4]، ومعنى الآلاء في قولِه تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُواْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ أي: نعمَه الظاهرةَ والباطنةَ، وإليه الإشارةُ بقولِه تعالى: ﴿وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ﴾ [لقمان: 20][5].

7) ﴿تَعۡثَوۡاْ﴾: من عَثيَ يَعْثَى عُثوّاً، والعَيثُ والعِثيُّ يتقاربان، نحو: جَذَبَ وجَبَذَ، إلّا أنّ العَيثَ أكثرُ ما يُقالُ في الفسادِ الّذي يُدركُ حِسًّا، والعِثيَّ فيما يُدركُ حُكمًا، والعَيثُ أشدُّ الفسادِ وأسرعُه، ويُقالُ: عاث يعيثُ لما يكونُ فيه إسراعٌ في الفساد، والذِّئبُ يعيثُ في الغنم فَلا يَأخُذُ منه شَيئًا إلّا قَتله[6].

8) ﴿مُفۡسِدِينَ﴾: الفسادُ خروجُ الشّيءِ عنِ الاعتدال، قليلًا كان الخروجُ عنه أو كثيرًا، ويُضادُّه الصّلاحُ، ويُستعمَلُ ذلك في النّفس، والبدنِ، والأشياءِ الخارجةِ عنِ الاستقامةِ، وفَسَدَ الشّيءُ: بَطُلَ واضْمحلَّ، والمَفسَدَةُ: خلافُ المصلحةِ[7].

❁ المعنى الإجْماليُّ:

واذكروا نعمةَ اللّهِ عليكم، إذ جعلكم تخلُفون عادًا في الأرضِ بعدَ هلاكِها، وأنزلَكم في الأرضِ، ومكّنكُم فيها، فتبنونَ في سهولِها

بـقـاءُ الـنِّـعـمِ مـرهـونٌ بـشُـكـرِهـا، وانـدِثـارُهـا معذوقٌ بكُفرِها

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (قصر)، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/423.
(2) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/236، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/135.
(3) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفاظ: (ألى).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات: (ألى)، والعسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 194.
(5) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفاظ: (ألى).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (عثي).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (فسد).

البيوتَ العظيمةَ، وتنحِتونَ منَ الجبالِ بيوتًا قويّةً، فاذكروا نِعَمَ اللّهِ الّتي أنعمَ بها عليكُم، واشكروه عليها، ولا تسْعَوا في الأرضِ مُفسدينَ.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

مناسبةُ الوصلِ بالواوِ في قولِه: ﴿وَٱذۡكُرُواْ﴾:

عبادةُ اللهِ وحدَه هي أصلُ النَّجاةِ وركنُ البقاءِ

عطفتِ الواوُ جملةَ: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ﴾ وما بعدَها على قولِه تعالى: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: 73]؛ مِن بابِ عطفِ الطَّلبِ على الطّلبِ، فبعد أن أمرَهم بعبادةِ اللّه وحدَه، أمرَهم بتذكُّرِ نِعَمِه؛ ليكونَ الأمرُ بعبادةِ اللّه وحدَه سببًا لِلتَّذكّرِ فيما أسبغَ على المُخاطَبين منَ النِّعَمِ، وهذا هو الّذي يُسمّيه علماءُ البلاغةِ بالتَّوسُّطِ بينَ الكمالَيْن.

دلالةُ الأمرِ على فائدةِ الخبرِ ولازمِها:

مُقتضَى الذّكرِ أداءُ حقِّ المذكورِ وعدمُ الإخلالِ به

لمّا كان الذّكرُ يُطلَقُ على خطورِ شيءٍ ببالِ مَنْ نسيَه، وعلى النّطقِ باسمِ الشّيءِ الخاطرِ ببالِ النّاس، وهو هنا في قوله سبحانه ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ﴾ بمعنى الذّكرِ العقليِّ، إذ ليس المقصودُ ذكرَ النّعمةِ باللّسان، فالمرادُ تعهّدُ آلاءِ اللّه تعالى عليهم وحفظُها وعدمُ نسيانها، وأشعرَت فائدةُ الخبرِ بلازمِها، فإنَّ ذكرَها يقتضي مقابلتَها بالشّكرِ والقيامَ بحقِّها بعبادة اللّه وحدَه المُنعِم بها، واجتنابِ القبائحِ والمنهيّاتِ الّتي لا تجتمعُ معَ النّعم، وأمرَهم بذكرِ النّعمِ الكبيرة؛ لأنّها تورِثُ محبَّةَ المُنعِمِ وإجلالَه والاستحياءَ منه، وفي الكلامِ تعريضٌ بالحثِّ على الوفاء[1].

بلاغةُ استعمالِ ﴿إِذۡ﴾ في قولِه: ﴿إِذۡ جَعَلَكُمۡ﴾:

تصويرُ نِعمِ اللهِ كأنّها حاضرةٌ أقوَى في الامتثالِ مِن مُجرَّدِ ذِكرِها

لمّا كانَ لفظُ ﴿إِذۡ﴾ لا يأتي في مثلِ هذا السّياقِ إلّا فيما كانَ له شأنٌ عظيمٌ أفادَ التّعبيرُ تعظيمَ نِعَمِ اللّهِ عليهم في جعلِهم خلفاءَ من

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/277.

بعدِ قومِ عادٍ، وفي أن بوَّأهم في الأرضِ، وزادَه مبالغةً في التّعظيمِ والتَّفخيمِ مجيءُ ﴿إِذْ﴾ مفعولًا للفعلِ ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ﴾، ففيه توجيهُ الأمرِ بالذِّكرِ إلى الوقتِ دونَ ما وقعَ فيه منَ الحوادثِ، مع أنَّها هي المقصودةُ بالذّاتِ، فلم يتَّسعِ المقامُ لذكرِ ذواتِ النِّعمِ؛ لعظَمِها وشمولِها وعمومِ نفعِها، فأفادَ ذكرُ الوقتِ المبالغةَ في تعظيمِ النِّعَمِ؛ لأنَّ إيجابَ ذكرِ الوقتِ إيجابٌ لذكرِ ما فيه بالطَّريقِ البُرهانيِّ، ويحتملُ أن يكونَ على الكنايةِ بطريقِ اللُّزومِ؛ فإنّ الوقتَ إذا استُحضرَ لزمَ مِن استحضارِه أن تكونَ النّعمُ حاضرةً بتفاصيلِها، كأنَّها مشاهَدةٌ عيانًا[1].

فائِدةُ استعمالِ الفعْلِ ﴿جَعَلَكُمْ﴾:

تظهرُ بلاغةُ استعمالِ ﴿جَعَلَكُمْ﴾ في قوله تعالى ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ﴾ في استحضارِ ما كانَ بعد عادٍ؛ أي: استحضارُ أنَّهم جُعلوا خلفاءَ من بعد ما وقعَ لعادٍ منَ العذابِ الأليمِ، وأنَّ هذا الجعلَ مرهونٌ بعبادتِهم وشُكرهم، ففائدةُ استعمالِ الفعلِ ﴿جَعَلَكُمْ﴾ التَّرغيبُ الظّاهرُ، والتَّرهيبُ الضِّمنيُّ، فما جعلَهم خلفاءَ بعد عادٍ إلّا ليشكروا لا ليكفروا، فإن كفروا كان مآلُهم مآلَ عادٍ.

نِعمُ الله ترغيبٌ ظاهرٌ وترهيبٌ باطنٌ فمن عرَفَ وُقيَ

نُكتةُ إضمارِ الفاعلِ في الفعلِ ﴿جَعَلَكُمْ﴾:

لم يأتِ الفاعلُ اسمًا ظاهرًا، فلم يقُل: (جعلكم الله خلفاء)؛ لأنَّ جملةَ: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ﴾ معطوفةٌ على جملةِ: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: 73]، فيكونُ الضّميرُ عائدًا على الاسمِ الجليلِ القريبِ الذّكرِ، وللإيذانِ بأنَّ الّذي جعلَكم خلفاءَ من بعدِ عادٍ هو اللّه الّذي ما لكم من إلهٍ غيرُه، ففي عَوْدِ الضّميرِ على الاسمِ الجليلِ تذكيرٌ بوصْفِ التّوحيدِ الّذي وصفَ اللّهُ تعالى به نفسَه؛ لإيصالِهم إلى إفرادِ اللّه بالعبادةِ؛ لأنّهم كانوا يعبدونَه، ولكنّهم كانوا يُشركون به سبحانه، كأنَّه يقولُ: الذي جعلَكم خلفاءَ،

القياسُ العقليُّ الصَّحيحُ يقتضي قياسَ النِّعَمِ على النِّعمِ والنِّقَمِ على النِّقَمِ لا الاستئثارَ بإحداهما

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/239.

هو الذي جعلَهم خلفاءَ، والذي أنزلَ بهم عقوبتَه هو الذي - إن تابعتموهم - سيُنزِلُ بكم عقوبتَه.

نُكتةُ مَجيءِ الجمْعِ بصيغةِ: ﴿خُلَفَآءَ﴾:

الامتنانُ بما كانَ لِثمودَ منَ الاستخلافِ في الأرضِ قوَّةً وتمكينًا

لمّا كانَ السّياقُ سياقَ ذكْرِ النِّعمِ وبيانِ قوّتِهم وتَمكينِهم في الأرضِ ومُلكِهم فيها ناسبَ أن يقولَ: ﴿خُلَفَآءَ﴾، فجمعَ على المعنى؛ لأنّه ذهبَ بالخليفةِ إلى الرَّجلِ، وهو المناسبُ لمعنَى التّمكينِ في اتّخاذِهم منَ السُّهولِ القصورَ، ونحتِهمُ الجبالَ بيوتًا، فكأنَّ واحدَهم خليفٌ، ثمَّ جُمِعَ على خلفاءَ، فأمّا لو جمعتَ (الخليفةَ) على أنَّها نظيرةُ (كريمة)، قيل: (خلائفُ)، كما يُقال: (كرائمُ)، إذ كانَت من صفاتِ الإناثِ، وإنَّما جُمعَتِ (الخليفةُ) على الوجهين اللَّذين جاءَ بهما القرآنُ؛ لأنَّها جُمعَت مرّةً على لفظِها، ومرّةً على معناها على وَفْقِ السّياقِ المناسبِ[1].

فائدةُ استعمالِ ﴿مِنۢ﴾ في قولِه: ﴿مِنۢ بَعۡدِ عَادٍ﴾:

بينَ عادٍ وثمودَ زمانٌ طويلٌ خلا منَ الأقوامِ سِواهم

أفادَ حرفُ الجرِّ ﴿مِنۢ﴾ فائدتَيْن: الأولى: ابتداءُ الغايةِ الزَّمانيَّةِ؛ بمعنى: لم يأتِ بعد عادٍ قومٌ غيرُهم، فلو قال: (بعد عادٍ) لاحتملَ النَّصُّ أن يكونَ بعدها أقوامٌ ثمّ جاءَت ثمودُ، لكنْ لمّا قال: ﴿مِنۢ بَعۡدِ﴾ عُلِمَ أنَّ الابتداءَ كانَ بهم، ولم يقُلْ: (خلفاءَ عادٍ) مع أنَّه أخصرُ؛ إشارةً إلى أنَّ بينهما زمانًا طويلًا[2]، فأفادَ التَّعبيرُ أمرَيْن اثنين: الأوّلُ: أنَّ ثمودَ خلفَت عادًا بعدَ زمانٍ طويلٍ، والآخرُ: أنَّه لم يكنْ بين عادٍ وثمودَ أقوامٌ.

الأخرَى: قومُ ثمودَ ليسوا خلفاءَ لعادٍ على الحقيقةِ، وخلافتُهم لعادٍ باعتبارِ خلوِّ الزَّمانِ من أحدٍ سواهم، والخلافةُ هي خلافةُ القيامِ بالتَّكاليفِ الشَّرعيّةِ؛ لذلك هم خلفاءُ من بعد زمانِ عادٍ لا

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/541.
(2) الآلوسّي، روح المعاني: 4/402.

خلفاءُ لعادٍ، فلمّا لم تقُم عادٌ بواجبِها وكفرتْ وعاندتْ استُؤْصِلت وعوقبت، فكانَت لثمودَ الخلافةُ في الأرضِ.

فائدةُ ذِكر (عاد) في قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ﴾:

عُـرِفـت عـادٌ بـاسـمِـهـا أكـثرَ مـن معـرفتِـهـا بنِسبتِـهـا إلى نبيِّها

لم يقُل: (من بعد قوم هود) كما قال هود: ﴿مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ﴾ [الأعراف: 69]؛ لأنَّ عادًا اشتُهرت عند العربِ باسمِها، بخلاف قومِ نوحٍ، فهم عُرفوا بنسبتِهم إليه، وذكرُ الأشهرِ هو الأصلُ؛ لأنَّه يُستحضرُ بمجرَّدِ ذكرِه، ولتذكيرِهم بما كان عليه قومُ عادٍ منَ القوّةِ والبسْطةِ في الخلْقِ، وما نشأ على أيديهم منَ الحضارة بعدَ الطّوفان؛ ليناسبَ تعليقَ قولِه: ﴿خُلَفَآءَ﴾ بقولِه: ﴿مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ﴾، وللإشعارِ بأنَّ مَنِ اتّبعهم في صُنعهم يوشِكُ أن يحلَّ به عذابٌ أيضًا.

فائدةُ الوصْلِ في قولِه: ﴿وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

خلافةُ السّابقين لا تتمُّ سعادتُها ما لـم يَلحقْها تمامُ التّمكين

أفادتِ الواوُ عطفَ قولِه: ﴿وَبَوَّأَكُمۡ﴾ على ﴿جَعَلَكُمۡ﴾، فعطفَ الجملةَ الفعليَّةَ على الجملةِ الفعليَّةِ، والتّقديرُ: (اذكروا إذْ جعلَكم، واذكروا إذْ بوّأكم)، كما ناسبَ العطفَ مجيءُ الجُملتينِ على معنى الإنعامِ والمنّةِ؛ للإشعارِ بأنَّه أعطاهُم نِعمًا كثيرةً، ومن أعظمِها شأنًا أنَّه جعلَهم خلفاءَ من بعدِ عادٍ، وأنَّه بوّأهم في الأرضِ، ولمّا جاء السّياقُ بصيغةِ الجمعِ أفاد أنَّ هذه النّعمَ تكونُ لمجموعِ القومِ، وهي نعمةٌ للأفرادِ تبعًا.

نُكتةُ التّعبيرِ بلفظِ: ﴿وَبَوَّأَكُمۡ﴾:

الأرضُ مَـنـزِلٌ لثمودَ استقرارًا واسـتـعـمـارًا واستكثارًا

يُشعِرُ التّعبيرُ بلفظِ ﴿وَبَوَّأَكُمۡ﴾ أنَّهم قد خلَفوا عادًا في الأرضِ، وكثُروا، وعُمِّروا أعمارًا طِوالًا، وكثُرَ تنعّمُهم فيها[1]؛ لِما في اللَّفظِ من معنى التَّمكينِ والاستقرارِ، وذلك أنَّ المباءةَ هي مَنزِلُ القومِ حيثُ يَتبوّؤون من قِبَل وادٍ أو سَنَدِ جَبَلٍ؛ ليكونَ مَرجِعًا لهم،

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/306.

فكأنَّ الأرضَ المعهودةَ كلَّها مَنزِلٌ لهم، يرجعون إليها، فهم يَجولون فيها كلِّها، ويرجِعون إليها كلِّها، فأفادَ اللَّفظُ التَّمكينَ الشّموليَّ للأرضِ، وإذا حملنا الأرضَ على الجنْسِ، فهو محمولٌ على المبالغةِ بقصْدِ الامتنانِ.

نُكتةُ استعمالِ حرفِ الظَّرفيَّةِ ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾:

الإشعارُ بنِعمِ اللهِ حجَّةٌ على الخلْقِ

أفادَ حرفُ الظَّرفيّة ﴿فِي﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ تعيينَ المكانِ؛ أي: في الأرض الّتي نزلتُمْ بها، واستقررتُم فيها؛ للإشعارِ بأنَّ تعْيينَها ليتّخذوا من سهولِها قصورًا، وينحتون الجبالَ بيوتًا منَّةٌ منَ اللهِ عليهم.

دلالةُ (أل) في لفظ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾:

تعريفُ الأرضِ بينَ العَهديَّةِ والجنسيَّةِ

تحتملُ (أل) في قولِه تعالى: ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ أن تكونَ للعهدِ؛ أي: في أرضِكم هذهِ، وهي أرضُ الحِجْر، وتحتملُ أن تكونَ للجنسِ؛ لأنَّه لمّا بوَّأهم في أرضٍ معيَّنةٍ فقد بوَّأهم في جانبٍ من جوانبِ الأرضِ[1].

نُكتةُ التَّعبيرِ بقولِه تعالى: ﴿تَتَّخِذُونَ﴾:

منْ نِعمِ اللهِ قوَّةُ الأبدانِ الرّافعةِ للقُصورِ

عُبِّرَ بلفظِ ﴿تَتَّخِذُونَ﴾ لِما فيه من معنى تحصيلِ الشّيءِ لنفسِه بقوَّةٍ وتمكُّنٍ منه، وهو المناسبُ للفظِ ﴿وَبَوَّأَكُمْ﴾، وفي اللَّفظِ معنى تعملونَ وتُشيّدون[2]، فيجمعُ معنى الإنعامِ بالعملِ وبالقوّةِ والتّمكينِ، وآثارُهم تنطقُ بذلك.

نكتةُ استعمالِ المضارعِ ﴿تَتَّخِذُونَ﴾:

طولُ المُكثِ في النِّعمِ يقودُ الجاحدَ إلى تعاطي أسبابِ النِّقمِ

عُبِّرَ بالفعلِ المضارعِ في قولِه تعالى: ﴿تَتَّخِذُونَ﴾؛ للإيذانِ باستمرارِ اتّخاذِهم من سهولِ الأرضِ قصورًا، ونحتِهمُ الجبالَ بيوتًا، ولأنَّ الأمرَ لم يقتصِر على مرَّةٍ واحدةٍ بل كان الاتّخاذُ مُتجدِّدًا حالًا فحالًا، ففيه معنى كثرةِ الاتّخاذِ، ودلَّ عليه مَجيءُ مُتعلَّقِ الفعلِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/220.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/93، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/220.

﴿قُصُورًا﴾ بصيغة جمع الكثرة، إيذانًا بكثرة نِعم الله عليهم، والظّاهرُ أنّهم مكثوا فترةً طويلةً في بنائِها وسُكناها، واستمرّوا على ذلك آنًا من بعد آنٍ، وفيه إشارةٌ إلى خبرٍ غيبيٍّ.

بلاغةُ استعمالِ ﴿مِن﴾ في ﴿مِن سُهُولِهَا﴾:

السُّهولُ هي مادّةُ قُصورِ ثمودَ وأماكِنُها

تحتملُ ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ أنْ تكونَ جنسيَّةً؛ بمعنى: تتّخذون مِن سُهولَةِ الأرضِ بما يعملون منها الصّخرَ واللَّبِنَ والآجُرَّ؛ أي: إنَّ القُصورَ الَّتي بَنَوها، أجزاؤُها ومادّتُها مُتَّخَذَةٌ من سهولِ الأرضِ، كما تحتملُ أن تكونَ تبعيضيّةً؛ بمعنى: مِن بعض لَبِنِ السّهولِ وآجُرِّها، أو تكونَ البعضيّةُ في السّهول؛ بمعنى: أنَّ بَعضَ السُّهولِ اتَّخَذوهُ قُصورًا؛ أي: بَنَوا فيهِ قُصورًا، وَأنشَؤوها فيه، وَلَم يَستَوعِبوا جَميعَ سُهولِها بِالقُصورِ، وأجازَ بعضُ المفسِّرين أن تكونَ ظرفيَّةً؛ بمعنى (في): أي: (تتَّخذونَ في سهولِها قصورًا)، وعُبِّرَ بـ ﴿مِن﴾ دونَ (في) على معنى ابتداءِ مكانِ اتّخاذِ القصورِ في السّهولِ، فأفادت ﴿مِن﴾ معنى الابتداءِ والظّرفيّةِ تكثيرًا للمعنى[1].

دلالةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور على المفعول في الآية:

كثرةُ النِّعم تستوجبُ كثيرَ الشّكرِ ودوامَه

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور ﴿مِن سُهُولِهَا﴾ على المفعول به ﴿قُصُورًا﴾ في قوله سبحانه ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ للاهتمامِ به، وللإشعار بمنّةِ اللّهِ عليهم في أن هيَّأ لهم السّهولَ ليتّخذوا منها قصورًا، كما يحتملُ أن يكونَ التّقديمُ للتّخصيصِ العُرفيِّ، فإنَّ تشييدَ القصورِ في ذلك الوقتِ كان في السّهول.

دلالةُ تنكيرِ: ﴿قُصُورًا﴾:

غفلةُ الإنسانِ عن نِعمِ اللهِ عليه رُغمَ كَثرتِها

أفادَ تنكيرُ ﴿قُصُورًا﴾ تعظيمَ القصورِ الّتي كانوا يتّخذونَها؛ للإشعار برِفعتِها وفخامتِها؛ لأنَّ القصورَ ما شيِّدَ وعَلا منَ المنازل؛

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/122، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/93، والبروسويّ، روح البيان: 3/191، والآلوسي، روح المعاني: 4/402، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/220.

أي: كانت واسعةً عاليةً حَسَنةً يقصرُ أملُ الآملِ ونظرُ النّاظرِ عليها، ممّا فيها منَ المرافقِ والمحاسنِ[1].

جملة ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ بين الحاليّةِ والتّفسيريّةِ:

تحتملُ جملةُ: ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ أن تكونَ حاليَّةً، وتكونَ الجملةُ المعطوفةُ عليها حاليَّةً كذلك؛ بمعنى: بوّأكُم في الأرضِ حالَ اتّخاذِكم من سُهولِ الأرضِ قصورًا، ومن جبالها بيوتًا، فالتّبوّءُ ظهرَ في هيئتينِ وحالتين؛ في هيئةِ القصورِ المتّخَذةِ من سهولِ الأرضِ، بمعنى الصّالحةِ للبناءِ، وفي هيئةِ نحتِ البيوتِ، بمعنى الصّالحةِ للنّحت.

حالُ ثمود من اتّخاذِ القصور ونحتِ الجبال هو بيانٌ لتمكّنِهم في الأرضِ

كما تحتملُ جملةُ: ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا﴾، وما عُطِفَ عليها أن تكونَ بيانًا لمعنى التّمكين والقوّةِ والاستقرارِ في قولِه: ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ لتفيدَ الجملةُ المبيّنةُ معنى التّأكيدِ والتّقريرِ والإيضاحِ والبيانِ، فقيل: إنّهم كانوا يَسكنونَ الجبالَ في الشّتاءِ لِما في البيوتِ المنحوتةِ فيها منَ القوّةِ الّتي لا تؤثّرُ فيها الأمطارُ والعواصفُ، ويَسكنونَ السّهولَ في سائرِ الفصولِ لأجلِ الزّراعةِ والعملِ[2].

ولا تعارُضَ بين الإعرابين، فإنَّ الحاليّةَ تدلُّ على بيانِ الحالِ، والتّفسيريّةَ تدلُّ على المعنى المبيَّنِ عمومًا.

نُكتةُ المضارعيّة في ﴿تَنْحِتُونَ﴾:

عُبِّرَ بالفعلِ المضارعِ في قولِه تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ﴾؛ للإيذانِ بأنّهم كانوا مُستمرّين في نحتِ الجبالِ بيوتًا؛ أي: إنَّ الأمرَ لم يقتصرْ على نحتِ بيتٍ واحدٍ أو بيتَيْن، فكان النّحتُ مُتجدِّدًا وقتًا فوقتًا، ممّا يُشعرُ بكثرةِ نحتِهمُ الجبالَ بيوتًا، ودلَّ على هذا مجيءُ مُتعلَّقِ الفعلِ ﴿بُيُوتًا﴾ بصيغةِ جمعِ الكثرةِ.

تسهيلُ النَّحتِ وتكثيرُه مَدعاةُ شُكرٍ ومَرساةُ يقينٍ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/445.

(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/306، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/93، والشّوكاني، فتح القدير: 2/251، ومحمد رضا، تفسير المنار: 8/448.

فائدةُ التَّعبيرِ بنحتِ الجبالِ كلِّها:

جـمـعَـتْ ثـمـودُ بينَ قـوَّةِ الأبـدانِ وهـنـدسـةِ الأذهانِ

في قوله تعالى ﴿وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ﴾، جُعِلَ مُتعلَّقُ النَّحتِ هو الجبالُ؛ لأنَّ الأصلَ في النَّحتِ أن يتعلَّقَ بحجارةِ الجبالِ لا بغيرِها[1]، وأفادَ التّعبيرُ بـ ﴿وَتَنْحِتُونَ﴾ معنى اقتطاعِ الحجرِ منَ الجبالِ وتسْويتِه وعملِه بدقَّةٍ؛ إظهارًا للمنَّةِ عليهم بالقوَّةِ والتّمكينِ، وإشعارًا بما أوتوا منَ العلمِ بالهندسةِ، وجعلُ النَّحتِ للجبالِ لا لحجارتِها؛ لبيانِ أنَّ النّحتَ لأكملِ الجَبلِ لا لبعضِه؛ لأنَّ البيوتَ مجمعُ السُّكّانِ، واجتماعُهم يجبُ أن يكونَ ضمْنَ هندسةٍ معماريّةٍ صُعودًا إلى البيوتِ ونزولًا منها، ولو قال: (تنحتون حجارةَ الجبالِ)، أو: (تنحتون بيوتَكم منَ الجبالِ)؛ لفُهِم أنَّ المقصودَ بالنَّحتِ هو قصُّ الحجارةِ ونقلُها إلى مكانِ البناءِ.

معنى النَّصْبِ في لفظ ﴿بُيُوتًا﴾:

إضـمـارُ الـعـمـلِ قبلَ الشُّروعِ فيه دليلُ المُكنةِ فيه

انتصبَ ﴿بُيُوتًا﴾ على الحالِ المقدَّرةِ منَ الجبالِ، والمعنى: (صائرةً بعد النّحتِ بيوتًا)؛ أي: مسكونةً، كما يُقالُ: خِطْ هذا الثَّوبَ قميصًا، وابْرِ هذهِ القصبةَ قلَمًا؛ لأنَّ الجبلَ لا يكون حالُه حالَ البيوتِ وقتَ النّحتِ، ولكنْ يصيرُ بيوتًا بعدَ النَّحتِ، وفائدةُ مجيءِ ﴿بُيُوتًا﴾ حالًا هنا الإشعارُ بأنّ مقصدَهم من أوَّلِ وقتِ نحتِ الجبالِ هو أن يكونَ لهم بيوتٌ يَسكنونَ فيها؛ إشعارًا بما عندهم منَ القوَّةِ والعِلْمِ بطرائقِ البناءِ وهندستِها.

جمالُ الكنايةِ عن التّنعُّمِ في الآيةِ:

مَن قدَّم رفاهيتَه عـلى دينِـه فقد باءَ بالخُسرانِ، وجاءَ بالبُهتانِ

في قولِه تعالى: ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾: أفادَ التّعبيرُ بتَينِ الجملتين بطريقِ الكنايةِ؛ أي: بذكرِ الملزومِ، وهو الجُملتانِ المذكورتانِ، وإرادةِ لازمِ معناهما أنَّهم كانوا مُتنعِّمين مُترفِّهين أولي قوَّةٍ وبأسٍ، وأنّ أعمارَهم كانت طويلةً[2]،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/220.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/306.

وهي كنايةٌ عن صفةِ الرَّفاهيّةِ والتَّرفِ، وفائدةُ الكنايةِ الإشارةُ إلى أنَّ ترفَ ثمودَ هو الّذي قادَهم إلى حتْفِهم، فلا ساكنين ولا مُترَفين، وأنَّ التّرفَ الّذي يُنحّي صاحبَه عنِ العبادةِ الحقَّة، بل يجعلُه فاسدًا في الأرض، قائدٌ إلى الغضب والعذابِ.

سرُّ تقديمِ اتِّخاذِ القُصورِ على نحْتِ البيوتِ:

التّرقّي في ذكْرِ الأسهلِ فالأصعبِ منَ العملِ

قُدِّمَ اتّخاذُ القصورِ على نحتِ البيوتِ في قولِه تعالى: ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾؛ لأنَّ اتّخاذَ القصورِ في السّهول أسهلُ من نحتِ البيوتِ في الجبال، كما أنَّ تحصيلَ السُّكنَى في الجبال بالقوّة والسَّبقِ، وليس كذلك اتّخاذُ القصورِ في سُهولِ الأرضِ، ففي الكلام معنى التّرقّي في الإنعامِ عليهم؛ ممّا يوجبُ زيادةً في ذكرِ آلاء اللّه وشُكرِها.

سرُّ تعريفِ ﴿ٱلْجِبَالَ﴾ بـ(أل):

عِظَمُ الجبالِ يُناسبُه الاستقلالُ وسهولةُ السُّهول تحسُنُ معها الإضافةُ

لم يقُل: (وتنحتون من جبالها بيوتًا)، كما قال في شأن القصور وإنّما قال ﴿وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾؛ لأنَّ الجبلَ قطعةٌ عظيمةٌ ناتئةٌ من سهلِ الأرضِ، ولعِظَمِ الجبال وعِظَمِ خلْقِها لم ترِدْ مضافةً إلى الأرض، فذكرَ اللّهُ تعالى أنّه خلقَها وجعلَها في الأرض، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا﴾ [الرّعد: 3]، وجاءتِ الجبالُ مقابلةً لذكْرِ الأرضِ، كما في قولِه تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾﴾ [المزمل: 14]، فلمّا ذكرَها بالتَّعريفِ بأل أعطاها فخامةً وجلالًا لم يكنْ لو أُضيفتْ إلى الأرضِ، فناسبَ إضافةَ السُّهول إلى الأرض لسُهولتِها، كما أنَّ الجبالَ استقلَّت لعظيمِ حالِها ووُعورةِ مَسلكِها.

بديعُ الطّباقِ بين الجبالِ والسُّهولِ:

ذكرَ السُّهولَ والجبالَ على وجهِ الطِّباقِ؛ لأنَّ الجبالَ ضدُّ السُّهولِ، فذكرَ ما أنعمَ عليهم في السُّهول، وما أنعمَ عليهم في ما

يقابلُها وهي الجبالُ؛ للإشعارِ بنِعمةِ الجمعِ بين الشّيءِ ومقابلِه، بأن جعلَ منازلَهم قسمَيْن: قسمٌ صالحٌ للبناء فيه، وقسمٌ صالحٌ لنحتِ البيوتِ[1].

فـنُّ الـطِّـبـاقِ اسـتـكـمـالٌ لـلـمـتـقـابـلات وتـتـمـيـمٌ للتَّقسيمات

سِرُّ استعمالِ لفظِ (البيوت) دونَ المنازلِ:

لمّا كان البيتُ اسمًا لمسقفٍ واحدٍ له دهليزٌ، وكان الأصلُ في البيتِ أن يكونَ موضعَ المبيتِ ليلًا ذكرَ ﴿بُيُوتًا﴾ دون (منازلَ)؛ إشعارًا بنِعمةِ الإيواء في الجبالِ والأمانِ فيها، كما أفادَ التّعبيرُ عُمرانَ البيوتِ، وأنّها كانت جاهزةً للمبيتِ في وقتِ الخطابِ،؛ لأنَّ البيتَ ليسَ ببيتٍ بعدما يُهدَمُ[2]، وأيضًا في استعمالِ لفظِ ﴿بُيُوتًا﴾ تناسقٌ في اللّفظ مع ﴿قُصُورًا﴾.

تناسُبُ الألفاظِ وتناسُقُ المعاني مَلحظٌ بديعٌ في النَّظْمِ القرآني

دلالةُ تنكيرِ ﴿بُيُوتًا﴾:

أفادَ تنكيرُ ﴿بُيُوتًا﴾ تعظيمَ البيوتِ الّتي نحتوها منَ الجبالِ؛ إشعارًا بقوَّتها وثباتِها وفخامتِها؛ لارتفاعِها وعُلوِّها، فهي في الجبالِ.

في تنكير (بيوتا) إيماءٌ إلى قوَّتِها وإشعارٌ بمتانتِها

توجيهُ المُتشابِهِ اللّفظيِّ:

جاء في هذهِ السّورةِ قولُه تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾، وفي سورةِ الحِجر والشُّعراء قال: ﴿يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ [الحجر: 82 و]الشّعراء: 149]، بـ ﴿مِنَ﴾ قبْلَ ﴿ٱلْجِبَالِ﴾، وفيه مناسبةٌ حسنةٌ، وذلك لأنَّ في الأعرافِ تَقدَّمه قولُه: ﴿مِن سُهُولِهَا قُصُورًا﴾، فاكتَفَى بذلك[3]؛ أي: أنَّه لمّا قال: ﴿مِن سُهُولِهَا﴾ اكتفَى بإيرادِ حرفِ ﴿مِن﴾ عن إعادتِه، وهو توجيهٌ لفظيٌّ، والأوجهُ أنَّ ما جاءَ في الأعراف بحذفِ (مِن) للمبالغةِ، و﴿مِنَ﴾ في الحِجر والشّعراء دلَّت على البيانِ، بدليلِ هذه الآية، فذكرُ حرفِ (مِن) وحذفُه في الموضعين يدلُّ على معنًى واحدٍ، لكنْ في الأعراف حُذِفَ للمبالغةِ، وفي الحِجر والشّعراء للبيانِ.

حُـذِفَ حـرفُ (مـن) للمبالغةِ في تـصـويـرِ نـحـتِ الـجـبـالِ واستحضارِ قوّةِ ثمودَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/220.
(2) المناويّ، التّوقيف على مهمات التّعاريف: 1/86، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 239.
(3) الكرمانّي، أسرار التّكرار في القرآن، ص: 124.

بلاغةُ الإطنابِ في عطْفِ العامِّ على الخاصِّ بالفاءِ:

تقديمُ النّعمةِ العُظمَى على بقيَّةِ النِّعَمِ دعوةٌ للشُّكْرِ وتثبيتٌ للامتنانِ

في قوله تعالى ﴿فَٱذۡكُرُوٓاْ﴾ أفادتِ الفاءُ العطفَ والسَّببيَّةَ، فعَطفتِ العامَّ على الخاصِّ؛ أي: عطفتِ الأمرَ بذكرِ آلاءِ اللّهِ الكثيرةِ المتنوّعةِ في قولِه: ﴿فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ على الأمرِ بذكرِ النِّعمتينِ العظيمتَينِ اللَّتين خصّهمُ اللّهُ بهما؛ لأنَّه أمَرَهم بذِكرِ نِعمتَينِ، ثمَّ أمَرَهم بذِكرِ جَميعِ النِّعمِ الّتي لا يُحصونَها؛ فكان هذا بمنزلةِ التَّذييلِ، وأفادتِ الفاءُ معنى السَّببيَّةِ في بيانِ أنَّ النّعمتينِ المذكورتينِ سببٌ في ذكرِ آلاءِ اللّهِ الكثيرةِ وشُكرِه عليها، وسببٌ في تركِ الإفسادِ في الأرضِ واجتنابِه، ففي العطفِ زيادةُ تقريرٍ للأمرِ بذكرِ نعمِ اللّهِ وتعميمٌ بعدَ تخصيصٍ[1].

بلاغةُ الإيجازِ في استعمالِ الفعْلِ ﴿فَٱذۡكُرُوٓاْ﴾:

تذكُّرُ آلاءِ الله يبعثُ على ذكْرِ الشُّكرِ والطّاعةِ وتركِ الفسادِ

يحتملُ أن يكونَ الفعْلُ ﴿فَٱذۡكُرُوٓاْ﴾ مأخوذًا منَ الذِّكرِ بكسرِ الذّالِ، وحُذِفَ مُتعلَّقُ الفعلِ لإفادةِ العمومِ، والمعنى: اذكروا آلاءَ اللّهِ بينكم وفي قلوبكم، ففيه الأمرُ بالتّذكّرِ، وهذا منَ الإيجازِ البليغِ.

ويحتملُ أن يكونَ مأخوذًا منَ الذُّكرِ بضمِّ الذّالِ، فيكونَ بمعنى التّذكُّرِ بالعقلِ والنَّظرِ النَّفسانيِّ، وتذكُّرُ الآلاءِ يبعثُ على الشُّكرِ والطّاعةِ وتركِ الفسادِ، فلذلكَ عطف نهيَهم عنِ الفسادِ في الأرضِ على الأمرِ بذكرِ آلاءِ اللّهِ، والوجهُ الأوّلُ هو الأولى، وعليه ظاهرُ قولِ المفسّرين[2]، والأمرُ بذكرِ آلاءِ اللّهِ يُقصَدُ به فائدةُ الخبرِ، وهو مدلولُ منطوقِ الجملة ولازمِ الفائدةِ، وهو المحافظةُ عليها بشُكرِها والقيامِ بموجبِها بعبادة اللّه تعالى وحدَه، فهو المنعِمُ بها[3].

الآلاءُ: هي النِّعمُ العظيمةُ الظّاهرةُ والباطنةُ المتواليةُ على العبادِ

نُكتةُ اختيارِ لفظِ ﴿ءَالَآءَ﴾ دونَ (نِعم):

جاء التَّعبيرُ بقولِه تعالى ﴿ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾، دونَ أن يقولَ: (نِعَمَ اللّهِ)؛

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/239، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/223.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/306، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/271.
(3) البروسويّ، روح البيان: 3/191، والقنّوجيّ، فتح البيان: 4/379.

لأنَ الآلاءَ جمعُ الأُلى، وهي النِّعمةُ الّتي تتلوها غيرُها، وتكون من عظائمِ النّعمِ؛ للإشعارِ بتوالي نعمِ اللهِ العظيمةِ السّابغة عليهم.

كذلك يدلُّ التّعبيرُ بالآلاءِ على النّعمِ العظيمةِ ظاهرًا أو باطنًا، والّتي فيها عِظةٌ تستحقُّ شكرَ المنعِمِ.

فائدةُ جمعِ لفظ ﴿ءَالَآءَ﴾:

الجمعُ إشارةٌ لكثرةِ النِّعمِ، وذكرُها عبادةٌ مشكورةٌ

تفيدُ صيغةُ الجمعِ ﴿ءَالَآءَ﴾ التَّكثيرَ؛ لمناسبةِ سياقِ الامتنانِ، بمعنى: قد ذكرتُ لكم بعضَ ما آتاكم اللهُ منَ النِّعمِ، وذكرُ الكلِّ طويلٌ، فاذكروا أنتم نعمَه تعالى[1]، فما تقدَّم من ذكرِ النِّعمتين على سبيلِ التَّمثيلِ، لا الاستقصاءِ، فإنَّ نعمَه تعالى لا تُعدُّ ولا تُحصَى.

فائدةُ الإضافة في ﴿ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾:

الآلاءُ من اللهِ وحدَه، فهو المستحقُّ للعبادةِ والشّكرِ وحدَه

أفادَتْ إضافةُ ﴿ءَالَآءَ﴾ إلى لفظ الجلالةِ ﴿ٱللَّهِ﴾ التَّخصيصَ وبيانَ مصدرِها، بمعنى: أنَّ الآلاءَ منَ اللهِ تعالى، وليستْ من غيرِه، كما أفادتِ الإضافةُ إلى اللهِ تعالى تشريفَها وتعظيمَها والتّذكيرَ بوجوبِ شُكرِ اللهِ المنعِمِ بها على عبادِه.

وفي الإضافةِ إلى اللهِ تعالى تنبيهٌ إلى مقامِ الألوهيّةِ المقتضي التّخويفَ من عصيانِ رسولِه.

مُناسبةُ عطْفِ جملة ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ﴾ على ما قبلها:

الحذرُ من استبدالِ الكُفرِ بالشُّكرِ

تقدّم أنَّ الفاءَ أفادتِ السَّببيَّةَ في قولِه تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾؛ بمعنى: أنَّ ذكرَ النِّعمتين سببٌ في الامتثالِ، وعطْفَ طلبَ النَّهي عنِ الإفسادِ في الأرضِ على طلبِ الأمرِ بذكرِ آلاءِ اللهِ؛ لأنَّ حقَّ آلائِه تعالى أن تُشكَرَ ولا تُهملَ ولا يُغْفلَ عنها، فكيف بالكفرِ والعثوِّ في الأرضِ بالفسادِ؟! وفي عطْفِ نَهيِهم عَنِ الفَسادِ في الأرضِ، على الأمرِ بذِكرِ آلاءِ اللهِ؛ تقريرٌ لمعنى السّببيّة الّذي أفادته؛ ليُرشِدَ إلى

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/306.

أنَّ تذَكُّرَ الآلاءِ يَبعَثُ على الشُّكرِ والطّاعةِ، وتَركِ الفَسادِ[1]، فيكونَ عطفُ هذه الجملةِ على السّابقةِ من بابِ التَّحذيرِ بعد إنشاءِ الأمرِ بذكرِ النِّعم الّتي تدعو للشُّكرِ لا الكفرِ.

دَلالةُ النّهيِ في جملة ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ﴾:

الإفسادُ درجاتٌ، وكلُّه مَنهيٌّ عنه

أفاد النّهيُ أنّهم كانوا مُفسدين في الأرض، فلم يَنهَ عن أمرٍ يُتوقَّعُ حصولُه، بل هو طلبٌ باجتنابِ ما هو واقعٌ، ودلَّ عليه مجيءُ الحالِ في قولِه: ﴿مُفۡسِدِينَ﴾، وأفادَ التّعبيرُ النّهيَ عن جميع أنواعِ الفسادِ، وأنّ إفسادَهم كان درجاتٍ، فمنه الأشدُّ.

نُكتةُ التّعبيرِ بلفظِ ﴿تَعۡثَوۡاْ﴾ دونَ (تُفسدوا):

العُثُوُّ هو الإسراعُ في الفسادِ والغُلوِّ فيه

عُبِّرَ بلفظِ ﴿تَعۡثَوۡاْ﴾؛ لما فيه من معنى الإسراعِ في الإفساد والغُلوّ فيه، فالعَيثُ أشدُّ الفسادِ وأسرعُه، كما أنَّ في اللّفظِ معنَى الإسرافِ والتَّبذيرِ مع الإفسادِ[2]، وهذا يدلُّ على أنَّ القومَ كان عندَهم فسادٌ شديدٌ، فجاء النَّهيُ عن ذلك، تنبيهًا على أنَّ المُطاولةَ فيه تُؤدّي إلى نزول العذابِ المبينِ.

نُكتةُ تقديمِ ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ على الحال ﴿مُفۡسِدِينَ﴾:

الأرضُ وُضِعتْ لإعمارِها لا لإفسادِها

أفادَ تقديمُ الجارِّ والمجرور على الحالِ الاهتمامَ والرّعايةَ بالأرضِ؛ لتذكيرِهم بأنَّ الأرضَ وُضِعَت لإعمارِها لا لإفسادها، ففي التّقديم توبيخٌ لهم على عُتوِّهم في الأرضِ، وإفسادِهم فيها.

دلالةُ استِعمالِ ﴿فِي﴾ مع لفظِ ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

تعيينُ مكانِ الإفسادِ زيادةٌ في التَّوبيخِ

أفادَ ذكرُ حرف الجرّ – مع أنّه يجبُ ذكرُه لسلامةِ تأليفِ الكلامِ ونظْمِه – تعيينَ مكانِ إفسادِهم زيادةً في توبيخِهم وتقريعِهم.

الحالُ ﴿مُفۡسِدِينَ﴾ بين التّأكيدِ والتّأسيسِ:

تحتملُ هذهِ الحالُ أن تكونَ مؤكِّدةً، بمعنى: تؤكِّدُ مدلولَ ﴿تَعۡثَوۡاْ﴾؛

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/243، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/221.
(2) رضا، تفسير المنار: 8/447.

والمعنى: لا تفسدوا أشدَّ الإفسادِ في الأرض حال كونِكم مُفسدين، كما تحتملُ أن تكونَ مؤسِّسَةً وهو الظّاهرُ، فإنَّ العثيَّ، وإنْ غلبَ في الفسادِ، ولكنْ قد يكون منه ما ليس بفسادٍ، كمقابلة الظّالمِ المعتدي بفعْلِه، فتُفيدُ الحالُ المقيّدةُ حينئذٍ ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ﴾ تخليصَ العثيِّ لمعنى الإفسادِ، وتقريرَ معنى النّهي عنِ الإفساد والغُلوِّ فيه كذلك، والمعنى لا تعتدوا حالَ إفسادِكم، كما أنَّ الحالَ هنا مُشعِرةٌ بالتّعليل لبيانِ سببِ النّهي؛ والمعنى: ولا تعتدوا في هذه النِّعم، وتتصرَّفوا فيها تصرُّفَ عَشيانٍ بمخالفةِ ما يُرضي اللّه فيها؛ لأنّكم مُتَّصفون بالإفساد ثابتونَ عليه[1].

التّأكيدُ أفادَ بيانَ قُبْحِ المُفسدِ، والتّأسيسُ أفادَ الاحترازَ عن مقابلةِ الظُّلمِ

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

بوَّأكُم وأسكنكُم وأنزَلَكُم:

الفرقُ بين الأفعال (بوّأكم) و(أسكنَكم) و(أنزلَكم) هو أنَّ (بوَّأكم) منَ البواءِ الّذي يدلُّ على الرّجوعِ إلى مكانِ إقامةِ القومِ بعد تجوالِهم، ويكونُ المكانُ فيه معنى القوّةِ والتّمكّنِ والأمانِ، وأن يكونَ مكافئًا له ليُرجَعَ إليه في المبيتِ، وأمّا (أسكنَكم) فهو منَ السُّكون، فيُقال: سَكنَ الشّيءُ يَسكُنُ سكوناً إذا ذهبَت حركتُه، وسَكَنَ فلانٌ مكانَ كذا؛ أي: استوطنَه، واسمُ المكانِ مَسكَنٌ، والجمع مَساكِنُ، والسُّكْنُ: أن تُسكِنَ إنساناً مَنزِلًا بلا مقابلٍ، وسَكَنَ بالمَكانِ أقام، ففي السّكنِ معنى الإقامةِ والاستقرارِ والهدوءِ بعدَ حركةٍ أوِ اضطرابٍ، وأمّا (أنزلَكم) فإنّه لمّا كانَ النُّزولُ في الأصل هو انحِطاطٌ من عُلوٍّ كان أنزلَكم بمعنى: أن يحلَّكم في موضعِ حطِّ الرّحلِ والمتاعِ، ففيه معنى الحلولِ مِن عُلوٍّ إلى سُفلٍ[2].

يُلحظُ في (بوَّأ) معنى الرُّجوعِ بعد التَّجوّلِ، والسُّكونُ فيه معنى الهدوءِ بعدَ الحركة، والإنزالُ يكونُ من عُلوٍّ إلى سُفلٍ ففيه معنَى الاستقرار

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/83، ومحمد رضا، تفسير المنار: 8/448.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (بوأ)، (سكن)، (نزل).

القصورُ والبيوتُ:

القصرُ هو المَسكنُ المبنيُّ بالحجارة المجعولُ طِباقًا، بحيث يُضمُّ بعضُه إلى بعضٍ في ارتفاعٍ، ويكونُ واسعًا عظيمًا مُحصَّنًا بالحيطانِ، ويكونُ بناؤُه من حجرٍ، سُمّي بذلك في الأصلِ؛ لأنَّهُ تقصرُ فيه الحُرَمُ وتُحبسُ فيه، أو لاحتوائه على مقصوراتٍ، وأمّا البيتُ فهو مأوى الإنسانِ باللّيل؛ لأنّه يُقال: باتَ: أقامَ باللّيل، كما يُقال: ظلَّ بالنّهار، ثمّ قد يُقالُ للمسكن بيتٌ من غير اعتبار اللّيل فيه، والبيتُ عندَ العربِ هو ما يُعرَفُ عندنا بالحُجرةِ، ولأنَّ الكعبةَ شَرَّفها اللّه تعالى على صورةِ الحُجرةِ سمّيَتْ بيتًا[1].

القصرُ: المسكن الـشّـامـخ، والـبـيـتُ: مكانُ الإيواءِ والسُّكنَى

العُثوّ والإفسادُ:

الفرقُ بينهما أنَّ الفسادَ هو التّغييرُ عنِ المقدارِ الّذي تدعو إليه الحكمةُ، فهو نقيضُ الصّلاحِ الّذي هو الاستقامةُ على ما تدعو إليه الحكمةُ، فما قصُرَ عنِ المقدار أو أفرطَ كان فسادًا، فهو تغييرُ ما من شأنِه أن يكونَ صالحًا، والفسادُ يكونُ في الأفعال والأقوال، فيَقعُ على الابتداعِ وفعلِ المُنكراتِ وغيرِها، وأمّا العثوُّ فهو كثرةُ الإفساد وأشدُّه، وأصلُه من قولك: (ضبعٌ عَثواءُ) إذا كثرَ الشَّعرُ على وجهِها، وكذلك إذا كَثُرَ الشّعرُ على وجهِ الرَّجلِ، و(عاثَ يعيثُ) لُغةً، و(عثا يعثو) أفصحُ اللُّغتين، فالعيثُ الإفسادُ لا الفسادُ، ومنه عاثَ الذِّئبُ في الغنم إذا أفسد، ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾، ولم يأتِ في القرآن منَ التّركيب إلّا هذه العبارةُ خمسَ مرّاتٍ، وهذا يؤكّدُ التّلازمَ بين العُثوّ والفساد[2].

الـفـسـادُ هو عـمـومُ التّغيير للأسوأ، والعُثُوُّ هو شدّةُ الفسادِ وكثرته

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بيت) و(قصر)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/286.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 213، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 598، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عثو).

الآلاءُ والنِّعمُ:

النِّعمُ عمومُ الخيرِ الذي يُصيبُ الإنسانَ، والآلاءُ النِّعمُ العظيمةُ المتتابِعةُ

الآلاءُ هي النّعمةُ الّتي تتلوها غيرُها، من قولك: وليَه يليه إذا قَرُب منه، فالآلاءُ هي النّعمُ العظيمةُ الكثيرةُ المتتاليةُ الّتي ينتفعُ منها جنسُ العقلاء، وتكونُ واضحةً ظاهرةً لا يمكنُ إنكارُها، وواحدُ الآلاء: إِلْيٌ بالكسر، وكدَلْوٍ، ورَحَى ومِعَى، وأمّا النّعمة فهي الحالةُ الحسنةُ، وتُطلَقُ على التّرفُّهِ والمالِ وطيبِ العيشِ، والنِّعَمُ قد تكونُ صغيرةً أو كبيرةً، وظاهرةً أو خفيَّةً، والنَّعماءُ بإزاءِ الضَّرّاء، والإنعامُ: إيصالُ الإحسانِ إلى الغَيرِ، ولا يُقال إلّا إذا كان الموصَلُ إليه من جِنسِ العقلاء، فإنّه لا يُقال أنعَمَ فلانٌ على فَرَسِهِ[1].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 194، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (إلي)، (نعم).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث عشر، سورة الأعراف من الآية 14 إلى الآية 87
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة الأعراف من الآية 14 إلى الآية 87 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 13 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-09-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 13 : سورة الأعراف من الآية 14 إلى الآية 87.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-09-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6551762 بتاريخ 2023/12/20م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»